الكتاب السابع والعشرون

تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل

الشيخ/ محمد الغزالي

د. حسان عبد الله حسان

الكاتب: السيرة الفكرية:

محمد الغزالي غنى عن التعريف فهو أحد شيوخ الدعوة الإسلامية الحديثة ومن فقهائها يحمل تاريخًا يزيد عن نصف قرن من العمل الإسلامي وهو أحد معالم الحركة الإسلامية في مصر وشارك في بنائها الفكري والفقهي وأسهم بشكل بارز في رسم سياستها، تحرر مبكرًا من سيطرة الأفكار الجامدة والمعتقدات الفاسدة والأيديولوجيات التي تنحي الموضوعية جانبًا، فقرأ في كل الاتجاهات الإسلامية التراثية والمعاصرة وكذلك المذاهب الوضعية - كما تدل على ذلك مؤلفاته - فكان باحثًا دقيقًا ومصلحًا ثائرًا وفقيهًا مجددًا، وجاءت مؤلفاته تمثل معالم الإحياء الإسلامي المنشود ذات رؤية خاصة تجمع ولا تفرق تتسم بالتطور والمستقبلية اللذين يحتاجهما الفكر الإسلامي المعاصر وتحذر من المزالق التي يمكن أن تقع فيها الدعوة الإسلامية وأعاد قراءة «النص» في ضوء احتياجات الأمة- في وقت ازدهر فيه الفكر العلماني - فكتب «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و «الإسلام والمناهج الاشتراكية» وفى محنة الحركة الإسلامية كتب «الإسلام والاستبداد السياسي» ، ثم كتب حين اتهمت الحركة الإسلامية بالتطرف «من معالم الحق» ، «كيف نفهم الإسلام؟» وكتب حين انتشرت وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، وكانت تبث فسادها في العالم الإسلامي «الغزو الثقافي يمتد في فراغنا».

إن هذا العالِم المجدد لعبت عوامل نشأته دورًا كبيرًا في تشكيله الفكري فقد

ولد في يوم ٢٢/ ٩/ ١٩١٧ في قرية نكلا العنب من إيتاي البارود بمحافظة البحيرة بمصر ونشأ في أسرة محافظة يغلب عليها العمل بالتجارة وكان والده من حفظة القرآن الكريم وقد نشأ الابن على ذلك حيث حفظ القرآن الكريم وعمره عشر سنوات وتلقى تعليمه في كتاب القرية، ثم التحق بالمعهد الديني بالإسكندرية حيث أكمل المرحلتين الابتدائية والثانوية ثم انتقل إلى القاهرة حيث درس بكلية أصول الدين سنة ١٩٢٧ وحصل على الشهادة العالمية سنة ١٩٤١ ثم تخصص في الدعوة والإرشاد حيث نال شهادة الماجستير سنة ١٩٤٣ وقد تزوج وهو طالب بكلية أصول الدين ورزق بتسعة من الأولاد.

ومن أهم مشايخه الذين تأثر بهم فترة الدراسة: الشيخ عبد العزيز بلال والشيخ إبراهيم الغرباوي، والشيخ عبد العظيم الزرقاوي وغيرهم.وبعد تخرجه عمل إمامًا وخطيبًا في مسجد العتبة الخضراء ثم تدرج في الوظائف حيث صار مفتشًا في المساجد ثم واعظًا بالأزهر الشريف ثم وكيلًا لقسم المساجد ثم مديرًا للمساجد ثم مديرًا للتدريب فمديرًا للدعوة والإرشاد.

كما أثر فيه فكريًا انضمامه لجماعة الإخوان المسلمين ولقائه بالإمام حسن البنا في فترة باكرة من حياته ومن عمر الجماعة نفسها ،إلا أنه لم يقع في كهف العمل التنظيمي وأبعاده الإيديولوجية وفضل الحرية الفكرية التي وضحت في كتاباته ومنهجه الفكري ،وقد قضى في معتقل الطور سنة ١٩٤٩ حوالي سنة، وقضى في سجن طره عام ١٩٦٥ فترة من الزمن وفى سنة ١٩٧١ أعير إلى المملكة العربية السعودية كأستاذ في جامعة أم القرى بمكة المكرمة وفى سنة١٩٨١عُين وكيلًا للوزارة كما تولى رئاسة المجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر الجزائري الإسلامية بالجزائر لمدة خمس سنوات.ألف ما يزيد على خمسين مؤلفًا في شتى مجالات الإصلاح ومختلف ميادينه ،وقد توفي شيخنا في الرياض يوم ٩/ ٢/ ١٩٩٦

ونقل إلى المدينة المنورة حيث دفن في مقابر البقيع.

الغزالي.. والبحث عن سر تأخر العرب والمسلمين:

من القضايا التي شغلت عقل وقلم محمد الغزالي تشخيص أسباب تأخر العالم الإسلامي وعوامل تخلفه وفى مؤلفه القيم «سر تأخر العرب والمسلمين» أشار إلى مجموعة من العوامل والأسباب التي أدت إلى تأخر الأمة الإسلامية ومن أهم ما أشار إليه،سقوط الخلافة الإسلامية والذي أدى إلى تفكك الأمة الإسلامية على أكثر من سبعين قومية أو سبعين جنسية سياسية بلغة هيئة الأمم ولغة (جوازات السفر) على السواء، والخلافة الإسلامية لم تلق حتفها في حادثة تصادم -كما يقول- ولم تفقد حياتها عقب اغتيال مفاجئ ؛ كلا بل كان نظام الخلافة يترنح ترنح السكران الفاقد الوعي، وكانت الأدواء الفتاكة تسرح في جسد الأمة كلها وتهد قواها هدًا، ومن ثم فإن السلطان عبد المجيد بعدما وقع في قبضة الإنجليز لم يفعلوا به شيئًا، لقد تركوه لقومه أو لعملائهم الذين زهدوا في الخلافة وآثروا الارتداد !! وهكذا تلاشت الدولة الإسلامية الكبرى بعد أن غرقت في دوامة أخطائها قبل أن تنالها سيوف الأعداء.

كما واجه المفاهيم المغلوطة التي التصقت خطأ بالإسلام ودعا إلى تصحيحها مثل ما يتعلق بالمرأة ودورها الاجتماعي ونشاطها الثقافي والذي أكد عليهما من خلال رؤية شرعية وعقلية، في الوقت الذي أصدر البعض فتاوى بتحريم ذهاب النساء إلى المسجد والقول بأن صوتها عورة وما إلى ذلك من الفتاوى والآراء المغلقة.لقد وقف الغزالي أمام هذه المفاهيم الخاطئة التي حاول بعض الجاهلين تغرير المسلمين بها وجعلها من يقين الأحكام الفقهية في الإسلام، وساق العديد من الأدلة ومن السيرة النبوية التي تؤكد فساد ما ذهب إليه هؤلاء في دعواهم.

ويستطرد -أيضًا- إلي عوامل أخرى كإحياء العصبيات الجاهلية وتدخل

الأهـواء، والاضـمحلال العلمـي، والفقـر الثقـافي الـذي أصـاب العـالم الإسـلامي داخليًا، وهو في ذلك يؤكد عـلى الأسباب والعوامـل الداخليـة ويراهـا أكثـر أثـرًا في زيادة وتعميق هوة التأخر والتخلف.

ومن ناحية أخـرى يعيـب عـلى المسلمين الـذين يتقوقعـون داخـل أنفسهم إلي درجة الجمود الـذي يـؤدي في النهايـة إلي المـوت، فلـم نكلـف أنفسنا معرفـة الآخـر ومعرفة ثقافته ومكوناته العقلية، ويرى «أننـا لم نكـن أوفيـاء لرسـالتنا ولا جـادين في تعرف العقبات التي تعترضها، ولا طبائع الأجناس التي تقاومها».

الغزالي والتجديد والاجتهاد:

من أعمق القضايا التي شغلت الساحة الفكرية في العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة هي قضية الاجتهـاد والتجديـد، والتـي صـاحبتها رؤى مختلفـة اتـسعت مـن الإفراط إلي التفريط، لـذلك كانـت هـذه القـضية ممـا انـشغل بـه الغـزالي في تحديـدها ووضـع العـلاج المناسـب لهـا، فالتيـار العلـماني رأى في الخـروج عـلى الـدين تجديـدًا، والبعض الآخر رأى في التقليد ولو الأعمـى عـين يقـين الإسـلام، بينما رأى الغـزالي وسطية الإسلام في عقيدته وأحكامه، فيكتب «كيـف نفهـم الإسـلام؟» يوضـح فيـه عنـاصر التجديـد والاجتهـاد وشروط المجتهـد وفيما يجتهـد وفيما لا يجتهـد، فكتـب يقول: «إن الاجتهاد لتعرف أحكـام الله في فـروع العبـادات حـق وقـد باشرتـه الأمـة الإسلامية بأسلوب بلغت الحرية فيه حد السرف وعندي أن القول بوقف الاجتهـاد في هذا النوع سائغ لأمور تستحق النظر والوزن: الأول ، أن ثمـرات هـذا الاجتهـاد لن تأتي بجديد فوق ما وصل إليه الأولون، فإن نـشاطهم القـديم كـاد يـستنفذ جميـع الاحتمالات الممكنة، ووجهات النظـر المحترمـة ،الثـاني: أن مـا يجـوز اسـتدراكه عـلى المجتهدين القدامى لا جدوى منه، نعم قد يكون حكمًا جديدًا لم يدركوه، وصـحيحًا لا غبار عليه، ولكن ما قيمته إذا كان غيره يغني عنه، وهو - خطـأ كـان أم صـوابًا -

موضع قبول من الله» .

والموقف -كما يذكر- على العكس تمامًا بالنسبة للاجتهاد في أبواب المعاملات، فإن القول بانتهاء عهده جريمة، والزعم بأن الأولين بلغوا حده الأقصى زعم بأن الحياة توقفت، وأقضيتها تناهت، ونشاطها العمراني انشل، وهذا زعم لا يقوم إلا في أذهان البله.

ويؤكد أن إغلاق الاجتهاد في أبواب المعاملات مظهر ودليل على حالة الضعف والتأخر في العالم الإسلامي ويرى «أن جمود الفقه نتيجة ولدها هذا التفاوت أي أن انغلاق باب الاجتهاد جاء حركة سلبية لضعف الحياة العلمية واضطرابها.بإزاء الفساد السياسي، وليس حركة إيجابية قام بها علماء لهم وعى أو أسستها مجامع متعاونة تفقه طبيعة الإسلام وحاجات العصور، وأحوال أهله في حاضر أمرهم ومستقبله ثم تصدر قرارها بعد ذلك على بصر تام وفي حرية مطلقة» .

الغزالي والتراث والثقافة الإسلامية:

من جوانب الإصلاح التي عنى بها الغزالي ما يتعلق بثقافتنا الإسلامية وتراثنا الإسلامي، حيث وجه النقد إلي المسلم المعاصر الذي فقد إكسير الحياة للأمة، والذي أدى إلي اضمحلال العقل الإسلامي وضعف الدراسات الدينية، ثم اضمحلال اللغة العربية وانكماشها أمام التقدم الحضاري وقلة المجيدين لها، وكثرة اللاحنين فيها دون أدنى حياء، وهذا الضعف الذي أصاب ثقافتنا أدى إلي تعثر وتقهقر نهضتنا الإسلامية.

وعن التراث يتحدث الشيخ الغزالي معلقًا: إن التراث بطبيعته هو الحياة والأحياء، فإذا مر الزمن على الحياة والأحياء أصبح تراثًا، فيه الخير والشر، فالأمم عادة تتشبث بمجموعها من تراثها تحيا به على نحو ما...إن خطورة التراث أن يبقى جديدًا في العصور الحاضرة، وهل التراث الذي يبقى جديدًا في العصور الحاضرة

يحمد كله أو يذم كله؟لا عصمة للميراث ولكن العصمة للحقائق إذا كانت حقائق، والهباء لا قيمة له وإن طال عليه الزمن»(،كيف نتعامل مع التراث؟ سيمنار بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي-القاهرة).

فالميراث - كما يراه الغزالي- ليس خيرًا كله كي نحافظ عليه ونتمثله وليس شرًا كله كي نرفضه ونستبعده، ولكن العبرة بالصالح منه، فيقول: «..ونحن معنا العقل الذي نستطيع أن ننقد به ونميز الخبيث من الطيب، إن عندنا فعلًا في تراثنا أشياء عندما نتعرض لها يجب أن نخجل من عرضها ولا ننسب إلي أعدائنا أنهم أدخلوها، فما دخل الإسرائيليين في قصة الغرانيق ونحن الذين خلقناها، وعندما أرى أنه حتى الآن «القرطبي» الذي يطبع ويوزع على الناس يقول: إنه في القرآن أغلاط أصلها نحوية قومها العرب بألسنتهم، وهذا موجود إلي الآن فأي تراث هذا الذي نحتفظ به ولا نريد أن نصححه ونصوبه».

الغزالي وقضايا المرأة:

من أبرز القضايا التي تعرض لها الغزالي في مؤلفاته، قضية المرأة ويبدو ذلك لأمرين: الأول - إنها كانت - ومازالت - هدفًا لغزو هويتنا الثقافية ،الثاني - أن هناك سوء فهم كبير لدى بعض الإسلاميين أنفسهم عن التصور الحقيقي والفعلي لمكانة المرأة في الإسلام والمجتمع الإسلامي، لذلك تعرض في أكثر من مؤلف لمكانة المرأة في الإسلام، وتطور هذه المكانة في العصر الحاضر.

الغزالي.. وشروط النهضة:

لم يقتصر اهتمام الغزالي في البحث عن أسباب التأخر والتراجع الحضاري، أو تشخيص العلل والداء الذي أصاب أمتنا، ولكنه اهتم - أيضًا- بوضع شروط للنهضة الإسلامية والإحياء الإسلامي، وقد ساعده في ذلك ثقافته الواسعة وإلمامه بالتاريخ القديم والمعاصر على السواء، وحسن فهمه وتقديره لعوامل الصعود

والهبوط الحضاري.

وفي مؤلفه «الطريق من هنا» والذي كتبه في الثمانينات يؤكد على أن الدولة الأمينة على الرسالة الإسلامية عليها واجبات ثقيلة نحو الأمة التي تقوم على شئونها، ونحو الأجيال الناشئة التي تقوم على تربيتها ومن هذه الواجبات ،تجديد علوم الدين، العناية بالتربية، تدريب جماهير المسلمين الفقيرة على الشئون المدنية ،الوحدة الإسلامية.

الكتاب: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل:

الطبعة التي تخضع للتناول هي الطبعة الثالثة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي عام١٩٩٦ ،٢١٨ صفحة، بينما طبع خلال الفترة من ١٩٩١وحتى ١٩٩٦ أربع مرات في دار الشروق الدولية. ويتضمن الكتاب عدة موضوعات منها: إسلامية المعرفة أو المعرفة الإسلامية ،لمحة عن الابتداع ،حقائق في التربية ،الوحي الأعلى ،على هامش التفسير ،على هامش السنة الوحي الأعلى.

كيف نتعامل مع التراث؟:

يأتي هذا الكتاب في ضوء السلسلة الفكرية التي بدأها محمد الغزالي والتي تعتني بطرح لمعالم منهج فكرى يمكن من خلاله أن نتعامل مع مصادرنا الشرعية والفكرية المكونة لنسقنا الفكري وشخصيتنا الحضارية، هذه المصادر التي اعتنى بها: القرآن، والسنة، ثم في الطرح الذي بين أيدينا «التراث» ويقصده على معنيين، الأول: ذلك التراث الذي ارتبط مباشرة بالمسائل الشرعية مثل التراث الفقهي والمسائل والأحكام الفقهية، والثاني: التراث الذي أدى فيه «العقل» البشرى المسلم الدور الأساس في تأسيسه وتكوينه مثل التراث الفلسفي والآراء والأفكار الفلسفية. وقد أراد محمد الغزالي في هذا الكتاب الاحتكام في ميزان الحكم على موروثنا الثقافي على أساسين عظيمين في الإسلام وفي تكويننا الحضاري وهما:

الشرع والعقل.

وقد نبه في أكثر من موضوع في إنتاجه الفكري إلى قضية المنهج أو المنهجية في تعاملنا مع مصادرنا الفكرية وحذر من المناهج المغلوطة في هذا التعامل لاسيما ما يتعلق بـ«الانتقائية» في قراءة التراث ويذكر في ذلك «أن المشكلة الفكرية اليوم هي أننا نحمل تخلفنا - أيضًا - لمواردنا الثقافية، فنفسر ميراثنا الثقافي من خلال واقع التخلف الذي نعيش فيه، فنصير نلجأ إلى لون من التفسير المتخلف - أيضًا - كنوع من التسويغ للواقع الذي نحن عليه، فننتقي بعض النصوص، ونعتمد على بعضها الآخر، وما إلى ذلك دون النظر إلى صحتها من حيث السند، أو إلى الأبعاد المطلوب إدراكها، واستشعار المسئولية تجاهها، هذا لأنها توافق الحالة التي نحن فيها، وكأن هذه النصوص بدل أن تكون دافعًا للتغيير، أصبحت مانعًا منه، تُقرأ بمنهج مغلوط يُكرس تخلف الأمة وسقوطها».

الكتاب: دواعي ودوافع:

في ضوء هذه الإشكالية الفكرية-السابقة- يطرح محمد الغزالي معالجته في كتاب «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل» والتي تنطلق من طرح منهجية يمكن من خلالها تصحيح المسار للعقل المسلم في نظرته وتصوره وطريقة تعامله مع مكوناته الحضارية: القرآن، والسنة، والتراث.

يوضح محمد الغزالي في «المقدمة» دواعي ودوافع تأليفه هذا الكتاب، وأبرزها كما نستنتج من قراءته هو تكوين مانع منهجي لأولئك المولعين بقضايا الخلاف صغراها وكبراها والذين يحشدون أفكارهم ومشاعرهم للانتصار فيها، والفرح بخذلان مخالفيهم، دون النظر إلى قواعد تجمع أو عقائد توحد، ويظل التراث في هذا الخلاف اللاعب الرئيسي- إن جاز القول - عند الأطراف المتخالفة، كل يبحث عما يؤيد وجهة نظره ويدحض بها الآراء الأخرى. ويحدد بدقة غاية هذا المؤَّلف بقوله

«إن هذا المؤلف «محاسبة نفسية» لموقفنا في الحاضر والماضي، ولن يصلح لنا مستقبل إلا إذا وفقنا في هذا الحساب، ووضعنا أيدينا على أسباب العوج.. وكل محاولة لاقتحام المستقبل بفكر عصور الانحطاط لن تزيدنا إلا خبالًا». ويضيف- أيضًا- أن هذا الكتاب تدور فكرته حول «المسار الفكري في تراثنا» من أجل «المراجعة والتحقيق».

«المراجعة» أو المحاسبة» التي يحددها المؤلف هي مراجعة حضارية بالأساس وفكرية وعقلية في المضمون وهو ما افتقدته الأمة المسلمة في عصور التراجع سواء على مستوى الأفراد أو الأفكار أو المؤسسات أو الدول رغم أن مسألة المراجعة والمحاسبة شرعية بالأساس «وحاسبوا أنفسكم» سواء كانت تلك «النفس» «فردية» أو «جماعية» أو «حضارية». ومن المؤكد أن من يفتقد هذه «المراجعة والمحاسبة» يفتقد معها «البصيرة الحضارية» التي تمكنه من تصويب أخطائه ومراجعتها، وترشيد حركته وفكره ومنهجه. خط «المراجعة والمحاسبة» هو بالأساس خط حضاري يصل الماضي بالحاضر في صورة إيجابية، والحاضر بالمستقبل في صورة تكاملية تتسم بالتوازن والواقعية:

منهج الكتاب والكاتب:

يمكن ملاحظة بعض من جوانب «منهج الكتاب والكاتب» فيما نشير إليه كما يلي:

أ- التحرر الفكري من القيود المعروفة التي أصابت العقل المسلم وأحدثت له أزمة فكرية مثل القيد المذهبي، والتقديس لغير الوحي (الآراء والأشخاص)، والأحادية الفكرية، ويذكر محمد الغزالي في ذلك قوله «إن عقلي مفتوح لما يقوله هذا أو ذاك، لست عبد فكرة ثابتة أتعصب لها دون وعى، بل أنا ما عشت طالب حق...وكل معرفة ألقاها أبحث عن نسبها وأصالتها، في ضوء فكر حر؛ ونقد

منصف، وقد ظهر ذلك فيما طرحه من أفكار في الكتاب - موضع الدراسة - ونقد للأفكار الأحادية وتقديس «البشرى»، والتعصب المذهبي والفقهي.

وقد استطاع الغزالي أن يتحرر من أسر السابقين واللاحقين فأعطى لنفسه حرية فكر غابت عند كثيرين، ولم يخش أن يتهم بالإفراط أو التفريط، فقط خشي ما رآه صوابًا بعقله وقلبه ألا يعلنه، وكان يذكر دائمًا أن من خصائص هذه الأمة «أن فيها مجددين ينفون تحريف المحرفين وانتحال المفسدين وتأويل الجاهلين وأن التراث لابد منه، ولكن التعامل معه يحتاج إلي عقل يعرف قيمة التراث ويصونه ويبعد عنه الشوائب لكي يبقى خالصًا» .

ب- حاكمية الغائية القرآنية الكونية، يؤمن الغزالي بالجمع بين القراءتين - وهى القراءة التي قدمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في بداية الثمانينات - قراءة الوحي (القرآن) وقراءة الوجود (أو الكون)، ويرى أن الرشد العقلي الحضاري إنما يكمن في تحقيق هذه القراءة بتوازن وانسجام، وفى الوقت نفسه ينعى على المسلمين غياب هذه الرؤية للقراءة القرآنية والكونية، ويتساءل «هل يشعر المسلمون بأن لهم رسالة كبرى تزحم البر والبحر وتشغل الإنس والجن؟ ما أخالهم يشعرون! إنهم يعيشون في زوايا متواضعة متقاصرة من الأرض، ينظرون إلى التقدم الحضاري بعيون ناعسة، وينظر العالم كله إليهم نظرة استهانة!... إنني أجزم بأن فلسفة الكون في القرآن الكريم بعيدة جدًا عن أفهام قرائه، وأن جمهرة المسلمين لا تسمع من هدير الآيات شيئًا طائلًا» .

وفى ضوء هذه الرؤية الحضارية لقراءة «الوحي والوجود» تختفي الإشكاليات الفكرية التي تظهر في الرؤية الأحادية أو المجتزئة، أو كما يذكر الغزالي فيما يتعلق بإشكالية (الدين والعلم) في الفكر الغربي قوله «العلم عندنا يستحيل أن يخاصم الدين أو يخاصمه الدين، وقضية النزاع بين العلم والدين لا صلة لها بالدين الصحيح،

قد يقع النزاع بين العلم والدين في البوذية أو البرهمية أو عقائد اقتبست منهما، أو متدينين انتسبوا إلى الله وأبوا السير على طريقه المرسوم، فغضب عليهم لما كذبوا عليه.. أما العقل السليم فهو الأداة الوحيدة لفهم الوحي، والكون على السواء».

ج- أصالة «التعددية» في الفكر الإسلامي، يقوم الكتاب-موضع الدراسة- على مُقوَّم «التعددية» كأصل فكرى ومنهجي: في الفكر الإسلامي، عُبر به في أشكال عدة: تعدد المذاهب، تعدد الآراء الفقهية، تعدد الأئمة والفقهاء، وذلك تحت مظلة شرعية وفكرية هي «الاجتهاد» والذي يقوم أساسًا على «الاختلاف» و«التعدد» والذي هو - أيضًا - ضد «الأحادية» و«الواحدية».

إسلامية المعرفة أو المعرفة الإسلامية:

يوضح محمد الغزالي تحت هذا العنوان طبيعة العلم وطبيعة مصدره وأبعاده التي يرتبط بها في منحى لتأصيل غائية «إسلامية المعرفة» -هذا المشروع الذي تبناه المعهد العالمي للفكر الإسلامي منذ نهاية السبعينات-، فيذكر تعقيبًا على آية سورة البقرة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣١] «أن العلم الذي اختص به آدم يتصل بالأرض والحياة على ظهرها واستثارتها واتصال عمرانها، واستكشاف قواها وأسرارها، ولن تكون الأرض وحدها مهاد الحياة البشرية فالأرض إحدى بنات الشمس، والمعيشة فوق ترابها مرتبطة بكواكب شتى في السماء، فلابد أن تتسع المعرفة الآدمية لتشمل علوم الكون والحياة «بهذه النظرة الشاملة لمفهوم «العلم» والتي تناقض الفهم «السائد» لدى عقول بعض «المتدينين»! يعالج فهم هؤلاء النفر من المسلمين الذين قصروا مفهوم «العلم» على «العلم الشرعي» وهذا تفسير في إطار واقع التخلف الذي تعيشه الأمة الإسلامية. ويبتعد عن المقصود العمراني والاستخلاف الذي أكده الوحي في أكثر من موضع.

أما مصدر هذا العلم الذي علا به آدم على الملائكة هو «الكون» إن العلم

بالكون هو صميم الإنسانية، والجهل به لا يعوض عنه شيء! ثم يصنف دلالات «العلم» الذي أشار إليه القرآن، الأول ، دلالته على الله، والثاني ، ارتباط الحياة الإنسانية ضروراتها ومرفقاتها بهذا الكون، والثالث، حماية الحقوق والحقائق.

ثم يعرج الغزالي على إشكالية أخرى تتصل بمفهوم «العلم» وهى «العلم الديني والعلم المدني» ويقارن بينهما من حيث الطبيعة والوظيفة، فالأول: محدد، أساسه الاتباع، والآخر مطلق أساسه الاختراع والابتداع، فالصلاة مثلًا والطهارة اللازمة لها لا يتطلب تعليمها إلا ساعة من نهار، وعلى المسلم بعد هذه المعرفة تكرار ما أمر به سائر عمره ليفيد من هذا التكرار أدب النفس وسكينة الروح، وتماسك الجماعة وإقامة أمة متعارفة على منهاج وهدف.

أما علوم الدنيا فهي متجددة، وقد لوحظ في نصف قرن الأخير أن المعارف الإنسانية زادت بما يساوى أو يفوق ما حققته الإنسانية طوال القرون الماضية، ودارسو العلوم الكونية ومتابعو التطور الحضاري يحسون هذه الحقيقة. وهو ما سعى الغزالي إلى حث المسلمين على تدبره والعناية به وهو الإقدام على علوم الدنيا وعدم الزهد فيها.

تجديد الإسلام: كيف؟:

اهتمت الدعوات الفكرية التي ظهرت عقب سقوط الخلافة الإسلامية في بداية القرن العشرين بطرح سؤال «التجديد» في الفكر الإسلامي، وذلك في مقابل حالة «الجمود» و«التقليد» التي سادت العقل «النظري» و«العملي» الإسلامي، وظهر ذلك عند «محمد عبده» في ثورته على «الجمود والتقليد» وعند على شريعتي في مشروعه «العودة إلى الذات» ،ومالك بن نبي في «شروط النهضة» وعبد الحميد بن باديس في مشروعه التربوي التجديدي، كما ظهرت كتابات متعددة تحمل اسم «التجديد» سواء تتعلق بالخطاب الإسلامي في شكله أو مضمونه، أو تتصل بعلوم

الدين والشرع، أو ترتبط بتجديد المنهج الفكري.

وضمن هذه الخريطة الفكرية للتجديد يطرح الغزالي تساؤله حول الكيفية التي يمكن من خلالها تجديد فهم الإسلام، وتجديد طرحه، وتجديد منهج التعامل وآلياته مع المصادر والأصول. ويذكر أنه قبل الإجابة - لابد من تقرير عدة أمور: أولها، أن دار الإسلام لم تنصف الوحي الذي شرفت به ولم تحسن القيام عليه، ثانيها: أن العالم بعيدًا عن ديار الوحي وفي غياب تعاليمه لم يقف مكتوف الأيدي، بل خط لنفسه مناهج من عنده اختلط فيها الصالح والطالح، ثالثها: أنه منذ سقوط بيزنطة، وافتتاح المسلمين للقسطنطينية، اكتشف الأوروبيون أمريكا، واستولوا على الأندلس، وبدأ عصر الإحياء، ووقعت طفرة علمية لم تعرف الدنيا شبيهًا لها منذ بدء الخليقة، كما استقرت نظم اجتماعية وسياسية كثر الحديث فيها عن حقوق الإنسان وكرامات الشعوب، وخلال هذا التحول كان الوجود الإسلامي يتقلص ويتراجع حتى أمسى أطلالًا بالية مع مرور القرن الرابع عشر للهجرة.

المسلمون «الخلائق الحائرة» والتعاليم العشرة:

يصف الغزالي المسلمين في حالتهم الحاضرة بـ«الخلائق الحائرة» وهذه الحيرة كما نفهمها حيرة في المنهج لذا طرح ما أسماه «تعاليم عشرة» مشيرًا إلى تكاملها مع ما طرحه حسن البنا في رسالته «التعاليم» «الأصول العشرين» تحت ركن «الفهم» والتي تضمنت عملًا منهجيًا فكريًا أصيلًا لحل أزمة «المنهج» عند المسلمين في فهم الإسلام، راسمًا فيها طريقًا فكريًا للنظر إلى العقائد، والفقه، والمذاهب، والوحدة الإسلامية، والنظم السياسية، ومصادر التشريع، في تصور وسطى جامع للأمة وحضاري مؤسسي للنهضة.

ويؤكد الغزالي في طرحه لهذه التعاليم العشرة «أن تجديد الإسلام ليس نشاطًا في ميدان واحد بل في ميادين شتى، وليس صمودًا أمام عدو واحد، بل أعداء كثيرين،

لعل أشدهم بأسًا يكمن في داخل بلادنا». وهذه المبادئ تأتى لترشيد مسيرة الإصلاح:

١- النساء شقائق الرجال وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وللنساء - في حدود الآداب الإسلامية - حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته.

٢- الأسرة أساس الكيان الخلقي والاجتماعي للأمة، والمحضن الطبيعي للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما، والرجل هو رب الأسرة، ومسئوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعًا.

٣- للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها.

٤- الحكام - ملوكًا كانوا أم رؤساء - أجراء لدى شعوبهم، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية، ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرهًا، أو يسوس أمورها استبدادًا.

٥- الشورى أساس الحكم، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها وأشرف الأساليب ما تمحض لله، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغش وحب الدنيا.

٦- الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التي قررها الإسلام، والأمة جسد واحد، لا يهمل منها عضو، ولا تزدرى فيها طائفة، والأخوة العامة هي القانون الذي ينتظم الجماعة كلها فردًا فردًا، وتخضع له شئونها المادية والأدبية.

٧- أسرة الدول الإسلامية مسئولة عن الدعوة الإسلامية، وذود المفتريات عنها، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء الخلافة

في الشكل اللائق بمكانتها الدينية.

٨- اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان أو حدثت فتنة أو ظلمت فئات من الناس.

٩- علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنساني المجرد، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجة والإقناع فحسب: ولا يضمرون شرًا لعبادة الله.

١٠- يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى - على اختلاف دينها ومذاهبها - في كل ما يرقى ماديًا ومعنويًا بالجنس البشرى، وذلك من منطلق الفطرة الإسلامية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء، محمد عليه الصلاة والسلام.

خطة لدراسة الغرب:

النظرة العامة للإصلاح المعرفي في العالم الإسلامي تشير بما لا يدع مجالًا للشك إلى أن الفكر الإصلاحي الإسلامي مهما اختلفت روافده فإنه يصب في معين واحد نظرًا لاشتقاقه من مصادر معرفية واحدة. والشاهد من هذه المعقولة هو ما لاحظناه من تشابه في تحدى الغرب عند على شريعتي ومحمد الغزالي وفى نظرتهما له، حيث أكد شريعتي في مشروعه «العودة إلى الذات» على ضرورة دراسة الغرب وطرح خطة منهجية لهذه الدراسة. وهنا يواصل الغزالي نفس هذه الخطة تحت عنوان «خطورة الجهل بالآخر».

ويؤكد الغزالي في هذا الصدد «أنه من الأخطاء التاريخية التي أساءت إلينا طويلًا جهلنا بغيرنا، وقصورنا عن إدراك أحوالهم العامة، وقد يكون هذا الغير خصمًا ضاغنًا أو عدوًا مزعجًا... لقد كانت دراستنا للآخرين صفرًا، مع أن الآخرين كانت تغلي مراجلهم ولا زالوا يفكرون في النيل منا والإتيان على ديننا من القواعد» ثم يقترح تكوين جهاز «ذي نشاط مزدوج»: النشاط الأول: يضع فيه

خطة لدراسة الغرب ويقوم على الأسس الآتية:

(أ) سبر الارتقاء الثقافي والإحاطة بالآماد التي بلغها غيرنا حتى نعرف من نخاطب؟ وماذا نقول؟

(ب) إدراك المستوى العمراني والصناعي والحضاري الذي يسود العالم من حولنا، فإن من الهزل أن تعرض الإسلام أمم متخلفة، ينظر إليها غيرها شزرًا، ولا تستطيع أن تساند حقها بدعائم مادية أو علمية.

(ج) دراسة التيارات السياسية والقوى العسكرية التي حظى بها غير المسلمين، وتقدير ما نقدمه للأديان والمذاهب الأخرى من دعم، ووضع ذلك تحت أنظار المسئولين.

نقد الدرس التفسيري:

انتقد الغزالي الدرس التفسيري للقرآن على مستويين، الأول: يتعلق بطريقة تدريس تفسير القرآن الكريم في الأزهر والتي رآها تختلط فيها أدوار الغايات والأهداف والوسائل وتتبدل، حيث تحولت وسائل وآليات التفسير (اللغة، الفقه) إلى غايات للتفسير ذاته فأصبحت هدفًا في العملية التعليمية ومع تأكيده على أن الوسائل البلاغية والأحكام الفقهية جزء من السياق المحكم للتربية القرآنية، إلا أنه أكد على عدم جواز أن تتحول الوسائل إلى غايات.

والمستوى الثاني: يتصل بأنماط التفسير واتجاهاتها مثل التفسير الصوفي والكلامي، والفقهي، والأثري، وقد سجل مآخذه عليها جميعًا وما تتضمنه من روايات سقيمة تم أدلجتها لخدمة اتجاه التفسير وأهدافه الفكرية. ثم طرح محمد الغزالي فكرة «التفسير الموضوعي» وأشار فيه إلى ضرورة إيجاد فهم جيد للآية أو لجملة الآيات التي تتناول قضية واحدة، هذا في ظل تعاون أنماط التفسير المختلفة بما يساعد على تقديم رؤية واضحة محددة المعنى.

ومن الإسهامات الباكرة في تقعيد التفسير الموضوعي كانت إسهامات محمد الغزالي، والتي طرح فيها قواعد لهذا النوع من التفسير - الذي لم يكن معهودًا قبله - ورأى أن التفسير الموضوعي على نوعين جديدين: أولهما تتبع قضية ما في القرآن كله، وشرحها على ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريبًا، والآخر النظر المتعمق في السورة الواحدة لمعرفة المحور الذي تدور عليه، والخيوط الحقيقية التي تجعل أولها تمهيدًا لآخرها، وآخرها تصديقًا لأولها (مثل ما قدمه محمد عبد الله دراز من تفسير لسورة البقرة في كتابه النبأ العظيم).

كما دعا - أيضًا - الشيخ الغزالي إلى تنقية كتب التفسير مما أسماه «القمامات الفكرية» تلك الروايات التي تنال من هيبة القرآن ذاته ولا تزال تحفل بها كتب السنة والتفاسير واقترح أن يقوم الأزهر بتأسيس لجانًا علمية لهذا الغرض.

الاستبداد الفقهي:

لم تظهر في العالم الإسلامي «محاكم التفتيش» التي كانت موجودة في أوروبا وتحكم باسم الدين، ولكن في فترة التراجع الحضاري تكونت اتجاهات وتيارات فكرية أرادت تأسيس هذه الظاهرة في العالم الإسلامي باسم «الاستبداد الفقهي» والذي يرده محمد الغزالي إلى عاملين رئيسين، الأول: نقص في العلم والمعرفة لدى تلك الطائفة، والعامل الثاني: تقديس فكرة «الأحادية» حيث إن هؤلاء لا يعرفون إلا رأيًا واحدًا ووجهة واحدة، أخذوا على شيخ واحد أو انحصروا في مدرسة واحدة، ولم يتيحوا لأنفسهم أن يسمعوا رأيًا آخر، أو يناقشوا وجهة مخالفة أو يجيلوا أنظارهم في أفكار المدارس الأخرى.

ومن هنا فإنه يؤكد -أيضًا- أن الخلاف الفقهي ليس معصية، فإذا استوفى شرائطه العلمية والخلقية لا يسمى معصية أبدًا، بل كل مجتهد مأجور بإجماع الأمة. وقد ظهرت المذاهب الفقهية والفكرية في إطار «الاجتهاد» كأصل تشريعي ومع

ذلك، فإن المذاهب على ما لها من اعتبار وتقدير لدى جمهور الأمة ليست حجة في دين الله، وإنما الحجة ما تستند إليه من أدلة شرعية منقولة أو معقولة.

وهذه الرؤية يجب تأملها لاسيما عند أتباع المذاهب المقلدين للأمة سواء بدراية أو من غير دراية بما يتيح لهم الإطلاع على المذاهب الأخرى، واختلاف العلماء، ليعرفوا معها قيمة «التعدد» و«الاختلاف»، و«التسامح» الفكري باعتبارها أصولًا شرعية وعقلية في الإسلام

السند والمتن:

من المسائل التي شهدت سجالًا فكريًا في المشهد الفكري الإسلامي مسألة «السنة» وشروط وطبيعة الأحاديث المقبولة والمردودة، وقد شغلت هذه المسألة محمد الغزالي ومثَّل جانبًا في ذلك المشهد منذ بداية التسعينات بعد صدور كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، وكان ذلك استجابة فكرية وإصلاحية لما انتشر في الساحة الإسلامية آنذاك - ولا يزال - من التعلق والاعتقاد بصحة كل ما جاء في كتب الحديث، بل والغلو في مكانة السنة نفسها وعلاقتها بالقرآن.

وتتلخص رؤية محمد الغزالي فيما يتصل بالسند والمتن في الحديث فيما أورده من الشروط الخمسة (التي اشترطها علماء السنة) لقبول الحديث ثلاثة منها في السند، واثنان في المتن وهي:

١- لابد في السند من راوٍ واعٍ يضبط ما يسمع ويحكيه بعدئذ طبق الأصل.

٢- ومع هذا الوعي الذكي لابد من خُلق متين وضمير يتقى الله ويرفض أي تحريف.

٣- وهاتان الصفتان يجب أن يطردا في سلسلة الرواة، فإذا اختلتا في راوٍ أو اضطربت إحداهما فإن الحديث يسقط عن درجة الصحة.

أما في المتن فلابد من النظر إلى نص الحديث نفسه:

١- فيجب ألا يكون شاذًا.

٢- وألا تكون به علة قادحة.

و يضيف الغزالي مع هذه الشروط التي أشار إليها علماء السنة في المتن، ضرورة العلم بالقرآن الكريم. والإحاطة بدلالاته القريبة والبعيدة، وعلمًا آخر بشتى المرويات المنقولة لإمكان الموازنة والترجيح بين بعضها والبعض الآخر. والواقع أن عمل الفقهاء كما يذكر الغزالي - متمم لعمل المحدثين. ومن هنا فإنه يدعو إلى مراجعة عامة لعمل الفقهاء والمحدثين حيث إن هذا التراث الذي خلفوه جدير بالنظر الدقيق، وذو أثر كبير على المستقبل الفكري للأمة الإسلامية.

*****

obeikan.com